خطر تتبع الرخص على دين المسلم (الجزء الثاني)

كنا في الجزء الأول من هذا الموضوع قد عرضنا لماهية الرخص من المنظور الشرعي وحج وأدلة القائلين بها ، وكذا أقوال السلف الصالح وأهل العلم في الرد على تلك الحجج وفيما يلي نعرض لجانب على صلة بالموضوع وهو من الأهمية بمكان والله المستعان وهو يهدي السبيل :

كيفية التعامل إذا اختلفت الفتيا :

كثيرما يكون دافع الناس إلى التساهل في أخذ الفتوى و إتباع النفس و الهوى في ذلك ، هو كثرة الفتاوى الواردة في المسألة الواحدة واختلافها، ثم الجهل بكيفية التعامل مع مثل هذه الحالة التي تعترض المسلم، ولذلك بات من الضروري توعية المسلمين بقواعد أخذ الفتية و الضوابط الشرعية الواردة في هذا المجال.

والأصل الذي جاءت به النصوص وأجمع عليه العلماء هو أن يسلك المسلم في مثل هذه الحالات مسلك الاحتياط و الورع و التثبت إذا أشكل عليه أي الفتاوى يأخذ بها فيختار أحوط الأقوال، و أصحها سندا ،وأكثرها إجماعا، في غير ميل إلى ما تدفعه إليه نفسه وتحدثه به وذلك لسلامة دينه من الشبهات كما ذكر ذلك الإمام الشوكاني في رسالته.

روى البخارى والمسلم في صحيحها من حديث النعمان بن بشير أن النبي ❐ قال: "الحلال بيّن و الحرام بيّن وبينهما أمور مشتبهات فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه"... الحديث ؛ وروى الترمذي من حديث حسن بن علي رضي الله عنهما أن النبي ❐ قال: "دع ما يريبك إلى مالا يريبك فان الصّدق طمأنينة والكذب ريبة"، وصدق النبي ﷺ فإن نفس المؤمن تطمأن إلى الصدق وترتاب من الكذب. و ترددُك أمام الأمر العارض مظنة كونه باطل فينبغي التعامل معه بحذر و روية، ولنا في حديث وابصة المشهور أكبر دليل على وجوب إتباع هذا المسك دون غيره، فقد روى الإمام أحمد في مسنده والطبراني و الدرامي بإسناد حسن عن وابصة بن معبد قال :"أتيت رسول الله ﷺ فقال:" جئت تسال عن البر والإثم ؟ قلت : نعم ، قال: استفت قلبك ،البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك".

قال الحافظ بن حجر رحمه الله في كتابه: جامع العلوم والحكم ، في معرض شرحه لهذا الحديث النبوي : "وأما ما ليس فيه نص من الله ولا رسوله ولا ممن يقتدي به من الصحابة وسلف الأمة فإذا وقع في نفس المؤمن المطمئن قلبه بالإيمان المنشرح صدره بنور المعرفة واليقين منه شيء وحك في صدره بشبهة موجودة ولم يجد من يُفتي بالرخصة إلا من يخبر عن رأيه وهو ممن لا يُوثق بعلمه وبدينه ، بل هو معروف بإتباع الهوى فهنا يرجع المؤمن إلى ما حاك في صدره وإن أفتاه هؤلاء المفتون.

وضرب الإمام النووي في شرح الأربعين عند شرحه لقوله ❐ : "والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك " مثالاً لهاته الحالة فقال مثالهُ : الهدية إذا جاءتك من شخص غالب ماله حرام وترددت النفس في حلها، وأفتاك المفتي بحل الأكل فإن الفتوى لا تزيل الشبهة ، كذلك إذا أخبرته امرأة بأنه إرتضع من فلانة فإن المفتي إذا أفتاه بجواز نكاحها لعدم استكمال النصاب المحرم لا تكون الفتوى مزيلة للشبهة بل ينبغي الورع وإن أفتاه الناس.

وهكذا فكل فعل تردد الإنسان في الإقدام عليه أو كره أن يطلع عليه المسلمون حال تلبسه به لأنه مستقبح عندهم فهو يندرج في دائرة الإثم والشبهات التي ينبغي الحذر من الوقوع فيها ، هذا معنى قول بن مسعود رضي الله عنه :" ما رآه المسلمون حسنًا فهو عند الله حسن و ما رآه المسلون قبيحاً فهو عند الله قبيح " وذلك لأن الأمة معصومة بمجموعها ولا تجتمع على ضلالة كما أخبر بذلك النبي ❐.

المفاسد المترتبة على تتبع الرخص

قال الإمام الأوزاعي رحمه الله :" من أخذ بنوادر العلماء خرج من الإسلام "، والمراد بنوادر العلماء فتواهم التي قد تستهوي الأنفس،والعالم بشر وهو عرضة للسهو والخطأ فيفتي بالرخصة في حالة محدودة، لتتلقفها العامة وتحولها إلى قاعدة مرجعية يحتج بها ولا يقبل بغيرها وهذا المسلك هو بداية التهاون بحدود وحرمات الله ومن لازمه إنتهى به إلى الخروج من دائرة الشرع الصحيح بل ودين الله عز وجل .

قال الإمام الشاطبي في الموافقات ص194 :" ...وقد ذكّر هذا المعنى جملة مما في إتباع رخص المذاهب من المفاسد سوى ما قد ذكّره في تضاعيف المسألة كالإنسلاخ من الدين بترك إتباع الدليل على إتباع الخلاف وكالإستهانه بالدين إذ يصير بهذا الإعتبار مطاطا هلاما لا ينضبط ، وكترك ما هو معلوم إلى ما ليس بمعلوم لأن المذا هب الخارجة عن مذهب مالك في هذه الأمصار (يعني الأندلس) مجهولة وكإنحراف قانون السياسة بترك الانضباط إلى أمر معروف وكإفظائه إلى القول بتلفيق المذاهب على وجه يخرق إجماعهم، وغير ذلك من المفاسد التي يكثر تعدادها . وفي موضع آخر من الكتاب نفسه يورد إجماع العلماء على أن تتبع الرخص من غير مستند شرعي فسق لا يحل.

ولما كان تتبع الرخص يتطلب إستعمال الحيلة في دين الله تعالى ، فقد أجمع العلماء على عدم جواز إستعمال الحيل وتحريف النصوص لتحقيق مآرب النفس بدعوى أن دين الله يسرو أن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها لأن هذا طريق النفاق وأول أبوابه وهو علامة على فساد القلب باستحسانه إتباع الهوى وما خالف الشرع وإجماع المسلمين بل والخروج من دين الله ، قال سهل بن عبد الله التستري رحمه الله : "من أفتى الناس بالحيلة فيما لا يجوز يتأول الرّي والهوى بلا كتاب ولا سنة فهذا من علماء السوء وبمثل هذا هلك الأولون والآخرون "، ولهذا ثلاث عقوبات يعاقب بها في عاجل الدنيا:

يبعد علم الورع من قلبه ويضيع منه.

تزين له الدنيا ويرغب فيها ويفتن بها.

يطلب الدنيا تضييعا فلو أعطي جميع الدنيا في هلاك دينه لأخذ ولا يبالي.

وقد ذم الله تعالى اليهود وحذر من التشبه بهم لأنهم استعملوا هاته الوسيلة للاحتيال على أمر من أوامر الله تعالى ، وذلك لما حرم عليهم الصيد يوم السبت ، قال تعالى : "واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون". ففي هاته الآية يحدثنا الله عن قوم من اليهود اختبرهم الله بأن حرم عليهم الصيد يوم السبت فخالفوا نهيه واحتالوا عن انتهاك ماحرم عليهم بأن صاروا يرمون شباكهم في البحر يوم السبت ويرفعونها يوم الأحد ويقولون نحن لم نصطد يوم السبت وإنما اصطدنا يوم الأحد ولذلك روى أبو هريرة أن رسول الله ❐ قال:" " لا ترتكبوا ما ارتكب اليهود فتستحلوا ما حرم الله بأدنى الحيل".

لعن رسول الله ❐ اليهود لحيله أخرى استعملوها فقال :" " لعن الله اليهود إن الله لما حرم عليهم الشحوم جملوها- أي أذابوها – وأكلوا ثمنها " ، وهكذا فهؤلاء رخصوا لأنفسهم أكل ما حرم عليهم بالاحتيال على دين الله وهذه الحيل لا تغير من أحكام الشّرع شيئا كما ذكّر ذلك الإمام إن القيم رحمه الله :" إن الحيلة لا تحل الحرام ولا تحرم الحلال ".

فالنتقي الله ولنحذر من استساغة وتحسين سلوك هذا الطريق فإنه يفضي إلى مهالك لا تحمد عقباها،وليكن الورع و الاحتياط و الابتعاد عن دائرة الشبهات الوسيلة لتجنب الوقوع في هاته المهالك.

نسأل الله أن يعلمنا ما ينفعنا وأن ينفعنا بما علمنا ويزيدنا علما وصلى الله على سيدنا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه والحمد لله رب العالمين.

المراجع :
القرآن الكريم-رواية ورش.
تفسير ابن كثير للحافظ ابن كثير ،طبعة دار ابن حزم ، بيروت لبنان سنة 2002.
الموافقات في أصول الشريعة للإمام أبو اسحاق الشاطبي تحقيق الدكتور محمد الإسكندراني .طبعة دارالكتاب العربي .بيروت لبنان 2002.
تحذير الفضلاء من اتباع زلات العلماء ،عقيل بن محمد بن زيد المقطري .طبعة دار ابن حزم.
بيروت لبنان سنة 1996.
إعلام الموقعين عن رب العالمين للإمام ابن قيم الجوزية ،ضبط وتخريج محمد المعتصم بالله البغدادي، طبعة دار الكتاب العربي. بيروت لبنان سنة 1998.
المستصفى في أصول الفقه للإمام ابو حامد الغزالي .طبعة دار الكتاب العربي .بيروت .لبنان سنة1998

الإيمان بالله يحدث تغييرات في الدماغ

ا.حاج عبو شرفاوي

تناولت مؤخرا إحدى المجلات العلمية مسالة "الاعتقاد بالله وأهميته للصحة النفسية"،وذلك اعتبارا لإحدى التجارب المجراة في أمريكا الشمالية،نلخص محتواها:

عندما نؤمن بالله، تعمل منطقة في الدماغ ببطء أكثر:إنها القشرة الأمامية التي تدعى cingulate. فما هو دور هذه القشرة؟ هذه المنطقة من الدماغ تُستخدم للتنبؤ بالمستقبل، وتحذرنا ما إذا كانت الأحداث التي تجري تماثل ما كنا نتوقعه.

فقد قام أطباء الأعصاب في جامعة تورنتو في كندا بإخضاع مجموعتين من أفراد مؤمنين و غير مؤمنين ،للماسح الضوئي-السكانير-، واجروا اختبارات ذهنية حيث كان عليهم توقع الجواب ، ومن ثم الاطلاع على الجواب الصحيح: لدى غير المؤمنين، يتم تنشيط القشرة cingulate بقوة في حالة الخطأ: إنها تشير على أن النتيجة لا تطابق التوقع.

لدى المؤمنين، يتم تنشيط القشرة بدرجة أقل بكثير، عندما يحدث حدث لا يتوافق مع تطلعاتهم، فإنه يثير رد فعل أقل حدة مما عليه لدى الآخرين.

فيما يقلل الدين من ردود الفعل على ما هو غير متوقع؟ في معظم نظم المعتقدات، يمكن دائما إعادة النظر في حدث لا يلبي التوقعات، وتفسيره ليتناسب مع الإطار النظري للإيمان. على سبيل المثال:إذا ما قتل صديق في حادثة سير أو أصاب احد ما مرضا عضالا، فإنه قدر الله و مشيئة والذّ عجز الانسان ادراك الأسباب، لا يعني أنه لا يوجد تفسير

ومن الواضح أن هذه الرؤية للعالم، تجلب فوائد جمة: القشرة الأمامية cingulate التي تعمل ببطء تخفض مستوى التوتر؛ مما يقل الاهتمام بالغموض الذي يلف المستقبل، لا نحاول كثيرا استكشاف الممكن وترقب البوادر التي تؤكد أو تنفي التوقعات. نكون أكثر قبولا لقدر الله، ولكن بضغط اقل .يعتبر الدين من قبل العديد من الباحثين مضادا للقلق، والذي شاع في الثقافات المختلفة بسبب هذه الفضيلة المهدئة، مساعدا على معالجة مخاوف الموت، ذات الطابع الذي لا يمكن التنبؤ به والسيطرة عليه. لكن شريطة الاعتقاد.وتوالى الجدل والنقاش حول الموضوع، حيث لاحظ البعض أن الإحصائية كان من المفروض أن تكون معكوسة، وذلك اعتبارا أن الإلحاد ظاهرة بشرية حديثة بدأت تظهر في أوروبا منذ قرنين أو ثلاثة قرون مع عصر التنوير. وقبل ذلك ومنذ ظهور إنسانsapiens - —العاقل- ، فإن الغالبية العظمى من البشر كانوا يؤمنون بإله واحد) أو آلهة متعددة) ولا يزال الكثير منهم يعتقد ذلك.

إحصائيا الحالة الطبيعية للدماغ البشري تبقى بأغلبية ساحقة، وبلا منازع، الاعتقاد بالله... ولذلك فان عدم الإيمان بالله هو من يغير الدماغ ، وليس الإيمان بالله! القشرات الدماغية cingulate لغير المؤمنين تثار بصورة غير طبيعية عندما يكونون على خطأ.. إن عدم الإيمان بالله عامل هام في رفع مستوى التوتر بامتياز!، إن فرط اثارةالقشرة الدماغية cingulateلدى الملحدين تعد من مسببات اضطرابات القلق، فهل هناك أضطرابات نفسعصبية أخرى هي أكثر انتشارا بين من لا يؤمنون بالله؟